

الفصل الرابع

من مظاهر تكريم الإسلام للمرأة

- تكريم الإسلام للمرأة باعتبارها «إنساناً»
- تكريم الإسلام المرأة بنتاً .
- تكريم الإسلام المرأة الأنثى .
- تكريم الإسلام المرأة «زوجة» .
- تكريم الإسلام للمرأة «أماً» .
- المرأة عضواً في المجتمع

من مظاهر تكريم الإسلام للمرأة

● تكريم الإسلام للمرأة باعتبارها (إنساناً)

لقد انبثق نور الإسلام ليضع الأمور فى مكانها الصحيح فاعترف بكاملية إنسانية المرأة ورفع عنها ما كانت تعانيه عبر التاريخ من ظلم واحتقار واضطهاد وكفل لها من الحقوق ما لم يكفله لها أى تشريع آخر . فقد جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانية المرأة ، وآخرون يرتابون فيها ، وغيرهم يعترف بإنسانيتها، ولكنه يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل .

فكان من فضل الإسلام أنه كرم المرأة ، وأكد إنسانيتها ، وأهليتها للتكليف والمسئولية والجزاء ، ودخول الجنة ، واعتبرها إنساناً كريماً ، له كل ما للرجل من حقوق إنسانية ، لأنهما فرعان من شجرة واحدة .

فهما متساويان فى أصل النشأة ، متساويان فى الخصائص الإنسانية العامة ، متساويان فى التكليف والمسئولية ، ومتساويان فى الجزاء والمصير .

وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١) .

وقال رسول الله ﷺ : « إنما النساء شقائق الرجال »^(١)

وإذا كان الناس – كل الناس – رجالاً ونساءً ، خلقهم ربهم من نفس واحدة ، وجعل من هذه النفس زوجاً تكملها بها كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (الأعراف: ١٨٩) .

(١) رواه أحمد وأبو دواد والترمذى .

وبث من هذه الأسرة الواحدة رجالاً كثيراً ونساءً ، كلهم عباد لرب واحد ،
وأولاد لأب واحد وأم واحدة ، فالأخوة تجمعهم^(١)

● تكريم الإسلام المرأة بنتاً

لقد أولى الإسلام : الحفاوة والتقدير للمرأة منذ أول وهلة تهبط على وجه
البسيطة : « قال رسول الله ﷺ : ساووا بين أولادكم — فلو كنت مفضلاً أحداً —
لفضلت النساء »^(٢) .

وينقل لنا المؤرخون الكثير من الأحاديث والوصايا التي تشد المسلم لأن يلقى
بثقله نحو العناية بالمرأة . بنتاً كانت . أم زوجاً . أم أماً .

لقد انتهج الإسلام سبيل الأغراء والترغيب في حب الأنثى .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على امرأة ومعها بنتان لها تسأل فلم
تجد عندي شيئاً غير ثمرة واحدة فأعطيتهما إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ثم
قامت فخرجت فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال : « من ابتلي من هذه البنات بشيء
فأحسن إليهن كن له ستراً من النار »^(٣) .

وعن أنس - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « من عال جاريتين حتى تبلغا -
جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضم أصابعه »^(٤) .

وقال : « من كانت له أنثى . فلم يندھا ولم يهنھا ولم يؤثر ولده الذكور عليها ،
أدخله الله الجنة »^(٥) .

(١) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده د . يوسف القرضاوى ص ٣٢١ .

(٢) الطبراني .

(٣) متفق عليه . انظر دليل الفالحين : ١١٣/٣ .

(٤) رواه مسلم . المصدر السابق ص ١١٠/٣ .

(٥) مختصر صحيح مسلم : ص ٢٣٠ .

وجاء فى الصحيحين - عن أبى قتادة الأنصارى - رضى الله عنه - قال : « كان رسول الله ﷺ يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب ، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها »^(١) .

وحمل القرآن - حملة شعواء - على أولئك القساة الذين يقتلون أولادهم - إنائاً كانوا أو ذكورا - فقال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾
(الأنعام: ١٤٠)

وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَئًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٣١)

وجعل رسول الإسلام الجنة جزاء كل أب يحسن صحبة بناته ، ويصبر على تربيتهن وحسن تأديبهن . وروى ابن عباس عنه أنه ﷺ قال : « ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه - أو صحبهما - إلا أدخلته الجنة »^(٢)

ونصت بعض الأحاديث على أن هذا الجزاء - دخول الجنة - للأخ الذي يعول أخواته أو أخته أيضاً . كما نص بعض آخر على أن هذه المكافآت الإلهية ، لمن أحسن لجنس البنات ولو كانت واحدة . ففى حديث أبى هريرة : « من كان له ثلاث بنات ، فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن ، أدخله الله الجنة برحمته إياهن » . فقال رجل : واثنتان يا رسول الله ؟ قال : « واثنتان » . قال رجل : يا رسول الله ، وواحدة ؟ قال : « وواحدة »^(٣) وبهذه النصوص الصحيحة الصريحة ، والبشارات المكررة المؤكدة ، لم تعد ولادة البنت عبئاً يخاف منه ، ولا طالع نحس يتطير به ، بل نعمة تشكر ورحمة ترجى وتطلب ، لما وراءها من فضل الله تعالى ، وجزيل مثوبته .

(١) قال الإمام النووى فى شرحه الصحيح مسلم : (١٣٢/٥) ليس فى الحديث دلالة على مشروعية العيث فى الصلاة كما استنبط من يهوى الشذوذ عن الفقه .

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح . وابن حبان والحاكم ؟

(٣) رواه الحاكم وصححه إسناده ووافق الذهبي .

وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأد إلى الأبد . وأصبح للبنات فى قلب أبيها مكان عميق، يتمثل فى قول النبي ﷺ فى ابنته فاطمة: «فاطمة بضعة منى ، يربىنى ما ربها» .

ونلمس أثر ذلك فى الأدب الإسلامى فى مثل قول الشاعر :

لولا بنات كزُغِب القطا	رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشى على الأرض
إن هبَّ الريح على بعضهم	امتنعت عيني عن الغمض ^(١)

وفى رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنات :

(أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار ،
والمبشرة بإخوة يتناسقون ، ونجباء يتلاحقون :

فلو كان النساء كمن ذكرنا	لفضّلت النساء على الرجال
وما التانيث لاسم الشمس عيبُ	وما التذكير فخسرٌ للهِلال

وقال :

أحبُّ البنات فحُبُّ البنات	ت فرضٌ على كُلِّ نفسٍ كريمة
لأن شعيباً لأجل البنات	ت أخدمه الله موسى كليمه

وكان لمعن بن أوس ثمان بنات ، وكان يقول : « ما أحب أن يكون لى بهن رجال » وفيهن قال :

رأيت رجالاً يكرهون بناهم	وفيهن — لا تُكذَّبُ — نساء صواحُ
وفيهن والأيام يعثرن باللقى	عوائد لا يملنّه ونسوانُحُ

(١) ملامح المجتمع المسلم الذي نشده د . يوسف القرضاوى ص ٣٣٤ .

وقال العلوى الجماني في صديق له ولدت له بنت فسخطها :

قالوا له: ماذا رزقنا	فأصاخ ثُمْتُ قال : بنتا
وأجلُّ من ولد النساء	أبو البنات، فلم جزعنا
إن الذين تُؤوِّدُ من	بين الخلائق ما استطعنا
نالوا بفضل البنت ما	كبتوا به الأعداء كبتا

وقال أبو محمد الحسن بن عبيدة الرجاني :-

حبذا من نعمة الله	البنات الصالحات
هن للنسل وللأنس	وهن الشـجرات
وبإحسان إلسيهن	تكون البركات
إنما الأهلون أرضون	لنسا محترثات
فعلينا الزرع فيها	وعلى الله البنات ^(١)

● تكريم الإسلام المرأة الأنثى *

قدر الإسلام أنوثة المرأة ، واعتبرها - لهذا الوصف - عنصراً مكماً للرجل ، كما أنه مكمل لها ، فليس أحدهما خصماً للآخر ، ولا ندأ له ولا منافساً ، بل عوناً له على كمال شخصه ونوعه .

فقد اقتضت سنة الله في المخلوقات ، أن يكون الأزواج من خصائصها فنرى الذكورة والأنوثة في عالم الإنسان والحيوان والنبات .

وإلى ذلك أشار القرآن منذ أربعة عشر قرناً فقال :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٩)

فالذكر والأنثى كالعلبة وغطائها، والشيء ولازمه ، لا غنى لأحدهما عن الآخر.

(١) ينظر عودة الحجاب محمد أحمد إسماعيل ص ٢٢٥ .

(*) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده بتصرف د . يوسف القرضاوى .

فالمراة - بهذا - غير الرجل ، لأنها تكمله ويكملها ، والشيء لا يكمل نفسه
والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ (آل عمران: ٣٦)

ومع هذا لم تخلق لتكون نداً له ولا خصماً بل هي منه له : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾
(النساء: ٢٥)

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ (النحل: ٧٢) .

واقتضت حكمة الله أن يكون التكوين العضوى والنفسى للمراة يحمل عناصر
الجازية للرجل وقابلية الانجذاب إليه .

وركب الله فى كل من الرجل والمراة شهوة غريزية فطرية قوية تسوقهما إلى
التجاذب واللقاء حتى تستمر الحياة ويبقى النوع .

وعلى هذا الأساس من النظر إلى فطرة المراة ، وما يجب أن تكون عليه فى
علاقتها بالرجل ، يعامل الإسلام المراة ، ويقيم كل نظمته وتوجيهاته وأحكامه .

إنه يراعى أنوثتها الفطرية ، ويعترف بمقتضياتها فلا يكتبها ولا يصادرها ،
ولكنه يحول بينها وبين الطريق الذي يؤدى إلى ابتذالها . وامتهان أنوثتها ، ويحميها من
ذئاب البشر ، وكلاب الصيد ، التى تتخطف بنات حواء ، لتنهشها نهشاً ، وتستمتع بها
لحماً ، ثم ترميها عظماً^(١) .

ونستطيع أن نحدد موقف الإسلام من أنوثة المراة فيما يلى :

١- إنه يحافظ على أنوثتها ، حتى تظل ينبوعاً لعواطف الحنان والركة
والجمال ، ولهذا أحل لها بعض ما حرم على الرجال ، بما تقتضيه طبيعة الأنثى
ووظيفتها ، كالتحلى بالذهب ، ولبس الحرير الخالص ، فقد جاء فى الحديث : « إن
هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم »^(٢)

(١) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده د . يوسف القرضاوى ص ٣٦٥ .

(٢) رواه ابن ماجه ج ٢ برقم (٣٥٩٥) عن على ، وهو صحيح مجموع طرقه .

كما أنه حرم عليها كل ما يجافى هذه الأنوثة ، من التشبه بالرجال فى الزى والحركة والسلوك وغيرها ، فنهى أن تلبس المرأة لبسة الرجل ، كما نهى الرجل أن يلبس لبسة المرأة ، وجاء فى الحديث : « لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل »^(١)

ولعن المتشبهات من النساء بالرجال ، مثلما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء^(٢) وفى الحديث: « ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة - المتشبهة بالرجال - والديوث »^(٣)

والديوث: الذى لا يبالى من دخل على أهله

وفى الحديث الآخر : « لعن الله الرجل من النساء »^(٤)

٢- وهو يحمى هذه الأنوثة ويرعى ضعفها ، فيجعلها أبداً فى ظل رجل ، مكفولة النفقات ، مكفية الحاجات ، فهى فى كنف أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوانها ، يجب عليهم نفقتها ، وفق شريعة الإسلام ، فلا تضطرها الحاجة القاهرة إلى الخوض فى لجج الحياة وصراعاها ومزاحمة الرجال بالمناكب من أجل لقمة العيش ، وهو ما فعلته المرأة الغربية بحكم الضرورة ، حيث لا يرعاها أب ولا ابن ولا أخ ولا عم ، فاضطرت أن تقبل أى عمل ، وبأى أجر ، وقاية من الهلاك .

٣- وهو يحافظ على خلقها وحياتها ، ويحرص على سمعتها وكرامتها ، ويصون عفافها من خواطر السوء ، وألسنة السوء - فضلاً عن أيدي السوء - أن تمتد إليها^(٥) .

(١) رواه عن أبي هريرة: أبو داود (٤٠٩٨)، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً، كما رواه أحمد: ٣٢٥/٢.

(٢) رواه عن ابن عباس البخارى فى كتاب اللباس ، كما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، صحيح الجامع الصغير (٥١٠٠) .

(٣) رواه أحمد عن ابن عمر، وقال الشيخ شاكراً: إسناده صحيح (١٦٨٠)، ورواه النسائى: ٨٠/٥ .

(٤) رواه أبو داود عن عائشة ، صحيح الجامع الصغير (٥٠٩٦) .

(٥) مركز المرأة فى الحياة الإسلامية ص ٤١ د . يوسف القرضاوى .

● تكريم الإسلام المرأة (زوجة)

فإن بركات الله على عباده لا تنفد ، ونعمه إلى خلقه لا تعد ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم: ٣٤) ، ومن أظهر هذه النعم وأوضحها أن براً الله لعباده حلائل تعمر بهن البيوت وتسهل الحياة وتدوم الذرية ، ويكمل الدين والعفاف :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ ﴾ (الروم: ٢١)

والرجل قبل الزواج يعيش في هذه الحياة فرداً ، ويسعى في أرجاء الكون وحيداً ، كأنه من شجرة لا يجد لنفسه استقلالاً ، ولا يخصص لهمة مجالاً ، وقد يكون في يده العمل والمال وأسباب الراحة والمتاع ، ولكنه دائماً يشعر بنقصه ، ويحس بحاجة إلى من يكمل معنى حياته ، فإذا صاحبه التوفيق وتزوج تجدد ميلاده واتسعت حياته ، وكأنه صار شجرة كاملة مستقلة ، غرست في التربة الخصبة الطاهرة ، فامتدت جذورها في الأعماق ، وارتفعت أغصانها نحو السماء ، ﴿ تَوْفَىٰ أَكُلِّهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٥)

وكذلك العروس في بيت أبيها تظل زهرة ناضرة عاطرة « تحوطها الوحدة والحجاب » حتى يهيئ لها مولها شريك حياتها ورفيق دنياها ، فتصبح روضة عامرة تفيض بالأزهار والرياحين نسلأ طيباً وذرية صالحة ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣٤)

ولم تعد المرأة في ظل الإسلام كما كانت عند الآخرين دنساً يجب التنزه عنه ، ولكن تسامى الإسلام بالمرأة إلى علياء السمو ، وجعل الزواج من نعمه سبحانه على عباده .

قال سبحانه في وصف الرسل ومدحهم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد: ٣٨)

ومدح عز وجل أوليائه بأنهم يسألونه ذلك في دعائهم ، فقال عز من قائل :

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان: ٧٤)

وجعل الإسلام الزوجة الصالحة للرجل أفضل ثروة يكتنزها من دنياه — بعد الإيمان بالله وتقواه — وعدها أحد أسباب السعادة ، وفى الحديث : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله »^(١)

وقال عليه الصلاة والسلام : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »^(٢)

وقال : « من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح »^(٣).

ورفع الإسلام من قيمة المرأة باعتبارها زوجة ، وجعل قيامها بحقوق الزوجية جهاداً فى سبيل الله .

وقرر الإسلام للزوجة حقوقاً على زوجها وأول هذه الحقوق هو « الصداق »
الذي أوجبه الإسلام للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته وإرادته لها .
قال تعالى :

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ مَثِيءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾

(النساء: ٤)

وثانى هذه الحقوق هو « النفقة » فالرجل مكلف بتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج لامرأته . قال عليه الصلاة والسلام فى بيان حقوق النساء : « ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف »

والمعروف هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بسلا إسراف ولا تقتير ، قال تعالى :

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد .

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ (الطلاق: ٧)

وثالث الحقوق : هو «المعاشرة بالمعروف» . قال تعالى : ﴿وَعَايَشُوهُنَّ

بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)

ويرى الإمام الغزالي :

« أن معاشرة الزوجة لا تنحصر في حسن الخلق معها ، وكف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها . والحلم عند طيشها وغضبها »^(١)

والمعاشرة بالمعروف تشمل العلاقة الجنسية أيضاً . يقول طبيب الأرواح ﷺ : « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها ، فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها » . فليصدقها : بمعنى فليؤنسها ويمتعها ، لأنها مسؤولية مشتركة ، فينبغي أن يقضى الطرفان مأربهما من هذه المتعة الروحية .

ويروى عنه ﷺ : « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ولكن ليكن بينكما رسول »

قليل وما الرسول يا رسول الله ؟ قال : « القبلة والكلام »^(٢)

فالقبلة الدافئة ، والكلمة الحانية ، والمداعبة ، واللامسات كلها مقدمات للمباشرة الجنسية الناجحة .

إن الإسلام في الوقت الذي منع المرأة من أن تفوت هذا الحق على زوجها إذا كان عذرهما طوعى حتى لو كان من العبادة النافلة ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه »^(٣) .

(١) إحياء علوم الدين : ١٣٥٢ .

(٢) أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس .

(٣) متفق عليه . انظر دليل الفالحين : ١٤٣/٣ .

كذلك أعطى المرأة فى ذلك كحق الرجل سواء بسواء ، فلا يحل له الامتناع عنها . بل إن الشريعة الإسلامية تتيح للمرأة حق طلب الطلاق ، إذا ما تعمد حرمانها من حقها هذا ، بدليل قوله تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرِثُصْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٦-٢٢٧)

وفيما يتعلق بجانب القضاء من هذه المسألة ، اختلف الفقهاء فيما يلزم الزوج من ذلك ، فقال أبو حنيفة : يلزم الرجل أن يتصل بزوجه فى كل أربع ليال مرة^(١)

والأصل فى ذلك ما روى من أن كعب بن سور ، كان جالساً عند عمر - رضى الله عنه - فجاءت امرأة ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، إن زوجى يصوم النهار ، ويقوم الليل . فقال عمر : ما أحسنك ثناء على زوجك . فقال كعب : يا أمير المؤمنين إنها تشتكى إليك زوجها . فقال عمر : وكيف ذلك . فقال كعب : إذا صام النهار . وقام الليل ، فكيف يتفرغ لها ؟ فقال عمر : احكم بينهما ، فإنك فهمت من أمرها ما لم أفهم . فقال كعب : أراها إحدى نساؤه الأربع ، يفطر لها يوماً ويصوم ثلاثة أيام . فاستحسن الخليفة ذلك ، وولاه قضاء البصرة^(٢)

وقال بعض الفقهاء : يلزم الزوج من ذلك مرة كل أربعة أشهر ، واستدلوا على ذلك بمدة الإيلاء .

وقال فريق آخر : إن الزوج لا يلزم بمرات محدودة وإنما يلزمه من ذلك بقدر ما يعف زوجته ويبعدها عن الحرام ، فإن تنازع الزوجان فى ذلك ورفع الأمر إلى القضاء كان للقاضى أن يقدره بما يراه تبعاً لحال الزوجين وهذا هو رأى النابض الذي ينسجم مع كل زمان ومكان^(٣)

(١) راجع : فتح القدير ٥١٨/٢ . (٢) المغنى : ١٤٢/٨ .

(٣) ويسألونك عن المرأة ص ٦٥ عبد الحافظ الكيسى .

وقد يتعجب القارئ كما تعجب الصحابة رضي الله عنهم من قبل عندما قال ناس منهم للنبي ﷺ : يا رسول الله ! ذهب أهل الذنور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : « أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وبكل تكبيرة صدقة ، وبكل تهليل صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة » ! قالوا : « يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون فيها أجر ؟ ! » قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان فيها وزر ؟ » ، قالوا : « بلى » ، قال : « فكذلك إذا وضعها في الحلال ، كان له فيها أجر » ^(١) الحديث .

وروى ابن حبان عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » وقد أثبتت السيرة النبوية العملية لطفه — عليه الصلاة والسلام — بأهله وحسن خلقه مع أزواجه .

● تكريم الإسلام للمرأة (أمأ)

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي غَامٍ إِنَّ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ * وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان: ١٤-١٥)

ولكون الأم عناؤها أكثر ، وشفقتها أعظم مع ما تقاسيه من حمل وطلق وولادة ورضاع وسهر ليل ، وتلطخها بالقدر والنجس ، وتجنبها للنظافة والترفة — زاد الشارع في الوصية ببرها ، وحض على العناية بشأنها . جاء رجل فقال : « يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » ^(٢)

(١) رواه مسلم (٦٩٧/٢) والسياق له ، والنسائي في « عشرة النساء » والإمام أحمد .

(٢) رواه الشيخان .

وروى أنه « جاء رجل وامرأة إلى رسول الله ﷺ يختصمان في صبي لهما، فقال الرجل : ولدى خرج من صليبي ، وقالت الأم : يا رسول الله حملته خفياً ووضعته شهوة ، وحملته كرهاً ووضعته كرهاً وأرضعته حولين كاملين. ففضى به ﷺ للأم » .

ولهذا وصي الله الإنسان بالديه ، وذكره بما قاسته أمه في سورة الأحقاف فقال :
﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف: ١٥)

وروى أن ابن عمر رضى الله عنهما رأى رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه على رقبته فقال : يا ابن عمر أترى أنى جزيتها ؟ قال : لا ولا بطلقة واحدة من طلقاتها ، ولكنك أحسنت والله يثيبك على القليل كثيراً .
وروى « أن ابن عمر شهد رجلاً يمانياً يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره ويقول : ^(١) »

إني لها بغيرها المذل إن أذعرت ركاها لم أذعر
الله ربي ذو الجلال الأكبر

ثم قال : يا ابن عمر أترانى جزيتها . قال لا ولا بزفرة واحدة »

ويحكى أن رجلاً جاء إلى أبي إسحاق البخارى فقال : « رأيتك البارحة فى المنام أن لحيتك مرصعة بالجواهر والياواقيت . قال : صدقت . فلبنى مسحت لحيتى تحت قدم أمى قبل أن أنام فهذا من ذاك » . وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال : « إني أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى . قال : قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد » ^(٢) وروى أن رجلاً قال : « يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك . قال : هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال : فالتزمها فإن الجنة عند رجلها » ^(٣) .

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد . (٢) رواه أبو يعلى بسند جيد . (٣) رواه الطبراني .

وعن المقدم بن معدى كرب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب »^(١) .

وعن أبي رمثة رضى الله عنه قال : « انتهيت إلى رسول الله ﷺ فسمعتة يقول : « برّ أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك »^(٢) .

قال البغوي : « وقد صح عن البراء عن النبي ﷺ قال : « الخالة بمنزلة الأم »^(٣) .

كثرك يا هذا لديه يسر	لأملك حق لو علمت كبير
لهما من جواها أنة وزفير	فكم ليلة باتت بثقلك تشكي
فمن غصص منها الفؤاد يطير	وفي الوضع لو تدرى عليم مشقة
وما حجرها إلا لديك سرير	وكم غسلت عنك الأذى يمينها
ومن ثديها شرب لديك غير	وثفديك ممّا تشستكيه بنفسها
حناناً وإشفافاً وأنت صغير	وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها
وآها لأعمى القلب وهو بصير	فآها لذي عقل ويتبع الهوى
فأنت لما تدعو إليه فقير	فدونك فارغب في عميم دُعائها

ومن عجيب ما جاء به الإسلام أنه أمر ببر الأم وإن كانت مشركة ، فقد سألت أسماء بنت أبي بكر النبي ﷺ عن صلة أمها المشركة ، وكانت قدمت عليها ، فقال لها : « نعم ، صلي أمك »^(٤) .

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٦٠) واللفظ له ، وابن ماجه (٣٦٦) ، والحاكم (١٥١/٤) ، والإمام أحمد (١٣٢/٤) ، وصححه الألباني .

(٢) أخرجه الحاكم (١٥١/٤) واللفظ له ، والإمام أحمد (٢٦٦/٢) ، وصححه الألباني في « إرواء الغليل » (٣٢٢/٣) ، وتأمل كيف قدم الأم على الأب ، وكذا قدم الأخت على الأخ .

(٣) رواه الترمذى وقال هذا حديث صحيح .

(٤) متفق عليه عن أسماء .

ومن رعاية الإسلام للأئمة وحققها وعواطفها : أنه جعل الأم المطلقة أحق بحضانة أولادها ، وأولى بهم من الأب .

قالت امرأة : يا رسول الله ، إن ابني هذا ، كان بطنى له وعاء ، وثديي له سقاء ، وحجرى له حواء ، وإن أباه طلقنى ، وأراد أن ينتزعه منى ! فقال لها النبي ﷺ : « أنت أحق به ما لم تنكحى »^(١) .

واختصم عمر وزوجته المطلقة إلى أبي بكر فى شأن ابنه عاصم ، فقضى به لأمه ، وقال لعمر : « ريحها وشمها ولفظها خير له منك »^(٢) .

والأم التى عني بها الإسلام كل هذه العناية ، وقرر لها كل هذه الحقوق ، عليها واجب : أن تحسن تربية أبنائها ، فتغرس فيهم الفضائل ، وتبغضهم فى الرذائل ، وتعودهم طاعة الله ، وتشجعهم على نصرته الحق ، ولا تبطئهم عن الجهاد ، استجابة لعاطفة الأئمة فى صدرها ، بل تغلب نداء الحق على نداء العاطفة .

ولقد رأينا أمأ مؤمنة كالخنساء ، فى معركة القادسية تحرض أبنائها الأربعة وتوصيهم بالإقدام والثبات فى كلمات بليغة رائعة ، وما أن انتهت المعركة حتى نعوأ إليها جميعاً ، فما ولولت ولا صاحت ، بل قالت فى رضا ويقين : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى سبيله !!^(٣)

● المرأة عضواً فى المجتمع^(٤)

يشيع بعض المغرضين أن الإسلام حكم على المرأة بالسجن داخل البيت ، فلا تخرج منه إلا إلى القبر ! .

(١) رواه أحمد وإسناده ضعيف .

(٢) رواه سعيد فى سننه .

(٣) ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده د . يوسف القرضاوى ص ٣٢٠ .

(٤) مركز المرأة فى الحياة الإسلامية د . يوسف القرضاوى

فهل لهذا الحكم سند صحيح من القرآن والسنة ؟ ومن تاريخ المسلمات فى القرون الثلاثة الأولى ، التى هى خير القرون ؟ لا ثم لا .

فالقرآن يجعل الرجل والمرأة شريكين ، فى تحمل أعظم المسؤوليات فى الحياة الإسلامية ، وهى مسؤولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١)
(التوبة: ٧١)

وتطبيقاً لهذا المبدأ وجدنا امرأة فى المسجد ترد على أمير المؤمنين عمر الفاروق وهو يتحدث فوق المنبر على ملأ من الناس ، فيرجع عن رأيه إلى رأيها ويقول بصراحة : « أصابت امرأة وأخطأ عمر »^(٢) والنبي ﷺ يقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »^(٣) .

فيجمع علماء المسلمين على أن المسلمة أيضاً داخلية فى معنى الحديث ففرض عليها أن تطلب من العلم ما يصحح عقيدتها ، ويقوم عبادتها ، ويضبط سلوكها بأدب الإسلام فى اللباس والزينة وغيرها ، ويقفها عند حدود الله فى الحلال والحرام ، والحقوق والواجبات ، ويمكنها أن تترقى فى العلم حتى تبلغ درجة الاجتهاد .

وليس لزوجها أن يمنعها من طلب العلم الواجب عليها ، إذا لم يكن هو قادراً على تعليمها ، أو مقصراً فيه . فقد كان نساء الصحابة يذهبن إلى النبي ﷺ يسألنه فيما يعرض لهن من شؤون ، ولم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين .

وصلاة الجماعة ليست مطلوبة من المرأة ، طلبها من الرجل ، فإن صلاتها فى بيتها قد تكون أفضل لظروفها ورسالتها ، ولكن ليس للرجل منعها إذا رغبت فى صلاة الجماعة بالمسجد ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »^(٤) .

(١) ذكره ابن كثير فى التفسير وجود إسناده .

(٢) رواه ابن ماجه ج ١ برقم (٢٢٤) عن أنس ، وصححه السيوطى قديماً والألبانى حديثاً .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عمر : ٣٢٧/١ برقم (٤٤٢) .

وللمرأة أن تخرج من بيتها ، لقضاء حاجة لها أو لزوجها وأولادها ، فى الحقل أو السوق ، كما كانت تفعل ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر ، فقد قالت : « كنت أنقل النوى على رأسي من أرض الزبير - زوجها - وهى من المدينة على ثلثي فرسخ » .
وللمرأة أن تخرج مع الجيش ، ولتقوم بأعمال الإسعاف والتمريض وما شابه ذلك من الخدمات الملائمة لفطرتها ولقدراتها .

روى أحمد والبخارى عن الربيع بنت معوذ الأنصارية قالت : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ نسقى القوم ونخدمه ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة »^(١) .

وروى أحمد ومسلم عن أم عطية قالت : « غزوت مع رسول الله ﷺ ، سبع غزوات ، وأخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على الزمنى »^(٢) .

فهذه هى الأعمال اللائقة بطبيعة المرأة ووظيفتها ، أما أن تحمل السلاح وتقاتل وتقود الكتائب فليس ذلك من شأنها ، إلا أن تدعو لذلك حاجة ، فعند ذلك تشارك الرجال فى جهاد الأعداء بما تستطيع ، وقد اتخذت أم سليم يوم « حنين » خنجراً ، فلما سألها زوجها أبو طلحة عنه قالت : « اتخذته إن دنا منى أحد من المشركين بقرت بطنه »^(٣) .

وقد أبلت أم عمارة الأنصارية بلاء حسناً فى القتال يوم « أحد » ، حتى أثنى عليها النبي ﷺ ، وفى حروب الردة شهدت المعارك بنفسها ، حتى إذا قتل مسيلمة الكذاب عادت وبها عشر جراحات .

فإذا شاع فى بعض العصور حبس المرأة عن العلم ، وعزلها عن الحياة ، وتركها فى البيت كأنها قطعة من أثاثه ، لا يعلمها الزوج ، ولا يتيح لها أن تتعلم

(١) رواه أحمد : ٣٥٨/٦ ، والبخاري فى كتاب الجهاد والسير : ٢٢٢/٣ .

(٢) رواه أحمد : ٤٠٧/٦ ، ومسلم (١٨١٢) .

(٣) رواه مسلم برقم (١٨٠٩) .

– حتى إن الخروج إلى المسجد أصبح عليها محرماً – إذا شاعت هذه الصورة يوماً فمُنشؤها الجهل والغلو والانحراف عن هدى الإسلام ، واتباع تقاليد مبالغه فى التزمت ، لم يأذن بها الله ، والإسلام ليس مسؤولاً عن هذه التقاليد المبتدعة .

إن طبيعة الإسلام هى التوازن المقسط ، فى كل ما يشرعه ويدعوا إليه من أحكام وآداب ، فهو لا يعطى شيئاً ليحرم آخر ، ولا يسرف فى إعطاء الحقوق ، ولا فى طلب الواجبات .

ولهذا لم يكن من هم الإسلام تدليل المرأة على حساب الرجل ، ولا ظلمها من أجله ، ولم يكن همه إرضاء نزواتها على حساب رسالتها ، ولا إرضاء الرجل على حساب كرامتها ، وإنما نجد أن موقف الإسلام تجاه المرأة يتمثل فيما يلى :

(أ) إنه يحافظ – كما قلنا – على طبيعتها وأنوثتها التى فطرها الله عليها ويحرسها من أنياب المفترسين الذين يريدون التهامها حراماً ، ومن جشع المستغلين الذين يريدون أن يتخذوا من أنوثتها أداة للتجارة والربح الحرام .

(ب) إنه يحترم وظيفتها السامية التى تهيات لها بفطرتها، واختارها لها خالقها. الذى خصها بنصيب أوفر من نصيب الرجل ، فى جانب الحنان والعاطفة ، ورقة الإحساس ، وسرعة الانفعال ، ليعدها بذلك لرسالة الأمومة الحانية ، التى تشرف على أعظم صناعة فى الأمة وهى صناعة أجيال الغد .

(ج) إنه يعتبر البيت مملكة المرأة العظيمة ، هى ربته ومديرتة وقطب رحاه ، فهى زوجة الرجل ، وشريكة حياته ، ومؤنس وحدته ، وأم أولاده ، وهو يعد عمل المرأة فى تدبير البيت ، ورعاية شؤون الزوج ، وحسن تربية الأولاد ، عبادة وجهاداً ، ولهذا يقاوم كل مذهب أو نظام يعوقها عن رسالتها ، أو يضر بحسن أدائها لها ، أو يخرب عليها عشاها .

إن كل مذهب أو نظام يحاول إجلاء المرأة عن مملكتها، ويخطفها من زوجها، وينتزعها من فلذات أكبادها — باسم الحرية ، أو العمل ، أو الفن ، أو غير ذلك — هو فى الحقيقة عدو للمرأة ، يريد أن يسلبها كل شيء ، ولا يعطيها لقاء ذلك شيئاً يذكر، فلا غرو أن يرفضه الإسلام .

(د) إنه يريد أن يبنى البيوت السعيدة ، التى هى أساس المجتمع السعيد ، والبيوت السعيدة إنما تبنى على الثقة واليقين ، لا على الشك والريبة ، والأسرة التى قوامها زوجان يتبادلان الشكوك والمخاوف ، أسرة مبنية على شفير هار ، والحياة فى داخلها جحيم لا يطاق .

(هـ) إنه يأذن لها أن تعمل خارج البيت فيما يلائمها من الأعمال التى تناسب طبيعتها واختصاصها وقدراتها ، ولا يسحق أنوثتها ، فعملها مشروع فى حدود وبشروط . وخصوصاً عندما تكون هى أو أسرتها فى حاجة إلى عملها خاصة .^(١)

(١) مركز المرأة فى الحياة الإسلامية د . يوسف القرضاوى .